المرحلة السابعة: ٧٥٠ ـ ٥٤٠

الموجات الشمالية: السيمريون والسيتيون، انبعاث أمبريالية بلاد ما بين النهرين

توسع الأشوريين، الأورارتيين، الكلدان، الماديين والليديين

إن الشرق الأدنى الآسيوي أو شرق الهضبات وبعد قرون عديدة من الانحجاب عاد مجدّداً إلى المسرح وقد خضّته موجات السيمّريين والسيتيين الشمالية (حوالي ٧٥٠). إن جبلي الشمال: أشوريين، أورارتيين وماديين، أخذوا يتنازعون على الهيمنة الأمبراطورية مستأنفين بذلك سياسة التوسّع العسكري التي عرفها الميتانيون والكاسيون والحثّيون. وقد انتقل مركز السياسة الدولية إلى الشمال حيث يدور الصراع من أجل الاستئثار بالقوة العالمية.

والمتنافسون ثلاثة: الساميون الآشوريون الذين يمتلكون أمبراطورية واسعة، أورارتو (أرمينيا اللاحقة)، وهي مملكة قويّة آسيانية الأصل، عدو الأشوريين الألدّ وقد قدّر له في بعض الأحيان التغلّب

عليهم، وأخيراً الأريون (ماديون وفرس)، هؤلاء الإيرانيون الذين بعد صراع طويل وقاس تغلّبوا على عدويهم وأسّسوا على أنقاضهما أول أمبراطورية عالمية»

R. Ghirshman.

R. Ghirshman, *op. cit.*, p. 61.

A. الأمبراطورية الأشورية الكبرى
تأسيسها وذروة تألقها ودمارها |٧٤٠ ـ ٦١٢|.
أشور القارية يجذبها البحر

I. أشور حتى تأسيس الأمبراطورية الكبرى

١ ـ الاستعمار الأشوري

أ ـ أشور، بروسيا الشرق القديم

إذا كان بوسعنا مقارنة تاريخ الشرق القديم، بتاريخ أوروبا الغربية المعاصر فإن مختلف مناطق ما بين النهرين القديم، سومر وأكاد وعيلام وأسّور أو الجنوب والوسط والشرق والشمال هي النماذج الأولى للإمارات الجرمانية في مطلع القرن التاسع عشر من عهدنا. فإلى الشرق من بلاد ما بين النهرين وأسوة بشرق ألمانيا، تمتد مناطق واسعة آسيوية ـ روسية في الشرق وروسية ـ آسيوية في أوروبا.

إن الظروف الطبيعية في أشور وبروسيا هي نوعاً ما متشابهة: فكلاهما يفتقران إلى إطار جغرافي متين وإلى أراض متناسقة وحدود طبيعية. كما أن البلدين محرومان من اتصالات مباشرة مع البحر ويمتلك كل منهما جملة أراض متفاوتة من حيث درجة خصوبتها، وهي مسطحة ورملية عامّة، ترويها الأنهار.

إن أوائل ملوك أشور كانوا كبار كهّان إلهي البلاد القوميين أشور وعشترت. أما بالنسبة إلى بروسيا فإن أول نواة كوّنت الدولة كانت دوقية براند بورج وهي أيضاً كانت إمارة دينية كنسية يحكمها السيد ـ الأعلى لرهبانية الفرسان التوتونيين.

وبالرغم من أصولها الكهنوتية فإن المملكتين الأشورية والبروسية لم يكن لديهما في أي وقت من الأوقات طابع ديني، فهما كانتا وستظلّان ملكيتين عسكريتين. ففي أشور. الملك ليس إلهاً كالفرعون ولكنه قائد حربي. وما الشعب الأشوري سوى جيش في جهوزيّة مستمرّة وهو في معظم الأحيان في الحملات. وفي بروسيا أيضاً فإن البابوية القيصرية الرومانو ـ بيزنطية لم تلقَ رواجاً قط. فالقصر الملكي سيكون دائماً ثكنة والحرب هي الصناعة القومية في البلاد.

ب ـ البلاد الأشورية

إن أشور أو «مات ـ إيل ـ أشور» بالأشورية هي بلاد الإله أسور. وهذا هو الإسم القديم لبلاد ما بين النهرين العليا، أي الجزء الشمالي والجبلي من بلاد النهرين. وأشور القديمة كانت مؤلّفة من منطقة الموصل الحالية وجزء من كردستان.

إن أسور هو في نظر الأشوريين، الخلف والملك، الإله القومي والخاص. كما أنه بالنسبة إلى أتباعه، رئيس الآلهة قاطبة. أما في نظر العبرانيين فأسور هو ابن سام وشقيق عيلام وآرام وهو تجسيد لبلاد أشور. وكان القدماء يطلقون أحياناً إسم أشور على مجموع مناطق النهرين. وأما اليونانيون فتوسّعوا أكثر في البدء في إطلاق هذا الاسم ليشمل مناطق أخرى في الجنوب الغربي، إلى أن ميزت عن بلاد أشور، سورية بحدّ ذاتها، التي تستقي حتى اسمها من اختصار لكلمة أشور.

إن جبال نيفات في الشمال وسلسلة جبال زاغروس في الشرق تشكّل حدوداً واضحة. ويعتبر دجلة النهر الرئيسي للبلاد، وثمة مجاري مياه أخرى تأتي من الجبال الأرمنية وتخترق البلاد. مناخ البلد ومنتجاته تختلف من منطقة إلى أخرى بسبب التفاوت الكبير في الارتفاع عن سطح البحر. وكان قد لاحظ القدماء في أشور شحاً في الأمطار ونقصاً في الأشجار. فالبلد كان خصباً في إنتاج القمح، وكميات من الثمار كانت تجنى من منحدرات الجبال. وكانت المعادن ومقالع الرخام والمرمر الأبيض تستثمر في جبال الشمال والشرق.

وبفضل موقعها الجغرافي فإن أشور التي تتلاقى فيها مختلف أعراق آسيا الغربية كانت المسرح الذي تتلاقى فيه الشعوب الأكثر تنوّعاً.

ج ـ التركيب العرقي

وإذا كان الشعب الأشوري في المرحلة التقليدية من تاريخه يبدو وكأنه سامي صرف، غير أن العناصر العرقية التي يتشكّل منها، كما رأينا، مختلفة عن تلك التي تشكّل الساميين الآخرين في الهلال الخصيب. فالأشوريون هم كالبابليين ورثة حضارة سومر، ويتكلمون مثلهم أيضاً لغة سامية وإنما مختلفة قليلاً. إلا أن الأشوريين يختلفون مع ذلك عن البابليين بالمركبات العرقية التي تكوّن شعب كل من البلدين. فبابل مؤلّفة من مزيج متعادل تقريباً من السومريين الآسيانيين والأكاديين الساميين في حين أن أشور هي نتاج أساس آسياني قد تقبل الحضارة السومرية ثم تطعم بمعطيات سامية وشمالية وهندو ـ أوروبية وآسيوية.

لا نزال نجد في بلاد ما بين النهرين الشمالية هذه حتى اليوم سكاناً بمثل هذا التعدّد العرقي، وحيث العنصر غير السامي أو غير العربي هو الطاغي. فالموصل الحالية التي تحتلّ موقع نينوى القديمة هي مركز العنصر الكردي في العراق أو بلاد ما بين النهرين الحالية. وأما في أيام الأشوريين فإن الأكراد، والذين على شاكلة المادو ـ فارسيين والأرمن، هم من الشعوب الهندو ـ أوروبية اللغة فقد كانوا يعتبرون من بين أعداء أشور تحت اسم جاردو. وكانوا يسكنون في جزء من أشور ومن أرمينيا ومن جبال زاغروس. وتسميهم الوثائق الفارسية بالكودراها. وأما اليونانيون فيعرفونهم باسم الكردوكيين والغورديين وقد كانوا ألد أعداء كزينوفون (قائد من جيش الاسكندر) لدى انسحابه مع العشرة آلاف مقاتل نحو ضفاف البحر الأسود.

إن العنصر الآسياني الأصلي يكوّن إذن أساس هذا المزيج المستقرّ الذي أنتج الشعب الأشوري. وإن هذا الشعب الذي صار سامياً من حيث لغته إلا أنه حافظ جسديًا ومعنويًا على الطباع العرقية التي اتّصف بها العرق الآسياني أو الأليبي الأصلي.

د ـ الأمبريالية الأشورية

إن الأمبريالية المابينهرية التي كانت مقيّدة منذ مطلع الألف الثاني بفعل الغزوات الشمالية سوف تولد من جديد بعنف أشدّ، بفضل عرق أمبراطوري فعلاً هو عرق الجبليين الأشوريين والذي دخل المسرح الشرقي الكبير بعد العام ٧٥٠.

ومنذ مطلع تاريخها فإن بلاد ما بين النهرين كانت مسرح معارك مستمرّة حيث كانت الأمبرياليات المتعادية لدى مختلف الملوك والمدن تتصادم من أجل توحيد البلد. وقد بدأت الصراعات بين مختلف المدن السومرية ثم لم تلبث أن انتقلت بين هذه المدن من جهة وأكاد وعيلام من جهة أخرى وحيث يرد عليها من الشمال ساميو أسور. فسومر وأكاد وعيلام وأسور أو بالأصح: الجنوب والوسط والشرق والشمال المابينهري هم الأبطال الأساسيون في هذه الملحمة الطويلة.

وكنا قد رأينا خلال آلاف السنين السابقة فعل وردّ فعل مختلف هذه المراكز المابينهرية. كما رأينا، وخلال الألف الثالث وبالتناوب، قيام أمبراطوريات إقليمية متنوّعة ثم انهيارها وكلّها كانت سريعة الزوال، كأمبراطورية أوروك السومرية وأمبراطورية أغاده السامية ثم أمبراطورية غوتي فأمبراطورية أور الثالثة السومرية وأخيراً أمبراطورية حمورابي السامية. وسوف نرى الآن وبعد أكثر من اثني عشر قرناً

على كسوف بلاد ما بين النهرين (٢٠٠٠ ـ ٧٥٠) قيام شعب توسّعي آخر يقطن هضبات بلاد ما بين النهرين الشمالية، بإنشاء أول أمبراطورية معروفة من أمبراطوريات الشرق الكبرى.

إن فقر البلاد التي يسكنها الشعب الأشوري والطبيعة الجبلية لمنطقة سكنه وغياب الحدود الطبيعية التي قد تحميه من الغزوات وبُعد الطرق البحريةالكبرى، كل ذلك سيجعل منه شعباً من الجنود. وإن شعب الجبليين هذا الذي بقي على نزاعات متتالية مع جيرانه في الشمال والجنوب والشرق والغرب وعن طريق سلسلة من الانتصارات والانكسارات أرسى دعائم عظمته الأمبريالية. إذ وبدءاً من العام ٧٥٠ سيتحقّق لهذا الجيش الأشوري، بفضل روحه القتالية وتقنيته البارعة، أن يحوِّل بلده المعزول والمحروم من المنافذ، إحتلال مناطق واسعة ومخارج على البحار.

«إن ساميي أشور وهم عرق صلب لا يعرف التردّد في سعيه إلى النصر، بحكم انقطاعهم عن الطرق التجارية والعسكرية وتطويقهم بشكل مأساوي، فقد دفعوا دفعاً لأن يجعلوا من الحرب صناعتهم القومية، مما جعل ملوك اشور يسيرون على رأس جيوشهم، مكرهين، من بابل إلى أورارتو ومن عيلام إلى فينيقيا وحتى مصر بل وحتى وراء هذه «الأقطار الأربعة» التي كانت تشكّل أمبراطورية سرجون الأول وحمورابي، ليخوضوا معارك بالسلاح والنار والدم لا هوادة فيها ضد جميع جيرانهم، وفي كل سنة تقريباً على امتداد أكثر من أربعة قرون (من العام ١١٠٠ إلى العام ٧٠٠). ولم يصلب عود جيشهم إلا في القرن الثامن، عندها أرسى هيمنة قصيرة العمر للأمبراطورية الأشورية، محقّقاً خلالها فتحاً أرهب شعوب الشرق الأدنى»[1].

ففضلاً عن بلوغ جيشها القوي درجة عالية من الكمال، قيض لأشور سلسلة من الملوك العظام وأرستوقراطية حربية تمتلك كل المؤهلات الرئيسية لتكوين الأمبراطوريات وهي: الروح العسكرية والشعور بالعظمة والموهبة الفطرية للقيادة. ومع الأسف فإن الصورة الأشورية قد غدت قاتمة بفعل الطرق القاسية والبربرية التي اعتمدت لتكوين هذه الأمبراطورية وحكمها: كالنفي الجماعي للسكان والنهب والتدمير الشامل للبلاد المحتلّة والفظاظة في معاملة الأعداء. وعوض إخفاء تلك الأعمال أو شجبها، نجد الأشوري القاسي بطبيعته وسياسته يباهي بها في مستنداته الرسمية.

1 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 673.

٢ ـ لمحة مراجعة حتى العام ٧٥٠

وبالرغم من ظهور الأشوريين بتاريخ متأخر نسبياً على مسرح التاريخ الكبير فإنهم، كما نعلم، بمثل عراقة البابليين وربما أعرق منهم. فقد ظهروا منذ مطلع الألف الثالث مستقرّين على ضفاف دجلة ومنحدرات سلسلة جبال زاغروس. ومدينة أسور، أول عاصمة لبلاد أشور كانت في البدء تابعة لسومر. وفي عهد سلالة أغاده (بعد العام ٢٧٥٠) كانت جزءاً من امبراطوريتها. أما في أيام أمبراطورية أور الثالثة السومرية (حوالي ٢٣٥٠)، صارت أسور من جديد تابعة لتلك الأمبراطورية، وبرزت الحضارة السومرية فيها في كل المجالات. وبفضل ردّات الفعل الناجمة عن الغزو الأموري تحرّرت أشور حوالي العام ٢٣٠٠ في حين كانت بابل المستقلّة هي أيضاً تشهد قيام سلالتها الملكية الأولى.

وحوالي العام ٢١٠٠ أسّس إيلوشوما أمير أشور أول دولة كبرى مستقلّة وسعى إلى بسط سيادته على الجنوب. وقد جعلته مطامحه هذه يصطدم بسلالة بابل الفتية والطموحة.

وحوالي العام ٢٠٥٠ تمكّن سرجون الأول ملك أشور ومؤسّس أول امبراطورية أشورية من مدّ سيادته من «البحر الأدنى حتى البحر الأعلى» (من الخليج العربي حتى البحر المتوسط). ولكن وفي حوالي نهاية حكمه تمكن حمورابي ملك بابل من أن ينتزع منه كل فتوحاته كما وقعت أشور نفسها تحت نير هذا الملك البابلي (حوالي العام ٢٠٠٠). وحوالي العام ١٩٥٠ قام شمشي أداد الأول، ملك أشور بحركة تمرّد على بابل وضمّ تلك الدولة التي انتزعها من ابن حمورابي، وقد مدّ نفوذه حتى لبنان وحارب النفوذ المصري في فينيقيا. وقد يكون ترك فيها نقشاً يخلد هذه الهيمنة العابرة ربما على صخور نهر الكلب قرب بيروت. وبعد العام ١٩٥٠ كانت الدولة الأشورية تارة حرّة وطوراً خاضعة لجيرانها.

من القرن العشرين إلى القرن الثاني عشر كانت أشور باستمرار في نزاع مع جيرانها العديدين: البابليين، الميتانيين، الكاسيين، الحثّيين، الآراميين. وتظهر تلك الصراعات من خلال سلسلة انتصارات وهزائم متعاقبة. وفي القرن الرابع عشر نجح الملك أشور أوباليت الأول (١٣٨٠ ـ ١٣٤١) للمرّة الأولى بنقل حدود بلاده إلى الفرات وحمل اللقب الأمبراطوري شاركيشاتي أو «ملك الكون».

وبعد العام ١٢٠٠ أفادت أشور من تجنّب الكوارث التي كانت تلحقها شعوب

الشمال والبحر بعدما توقّفت غزوات هؤلاء عند حدود الفرات ومن ضعف الدول الأخرى لتستأنف سياستها التوسّعية. وحوالي العام ١١٠٠ بسط تغلت فلصر الأول سيادته من أرمينيا وحتى «البحر الأعلى حيث تغيب الشمس»، واستعاد اللقب التقليدي أي «ملك الأقطار الأربعة». لكن هذه الفتوحات كانت سريعة الزوال كالفتوحات التي سبقتها.

وبعد فترة طويلة من الكسوف تخلّلتها بعض الغارات غير المنتظمة إستؤنفت سياسة التوسّع الأشورية بعد العام ٩٠٠ بطريقة أكثر تنظيماً حيث أن أشور نازيربال الثاني (٨٨٤ ـ ٨٥٨) اجتاح سورية الشمالية وانعطف نحو لبنان وتسلّم جزيات المدن الفينيقية. وأما خلفه شلمنصّر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤) فسحق على التوالي تحالفين لصغار الملوك السوريين ـ الفلسطينيين، ودمّر منطقة دمشق وفرض سيادته على بابل.

وأخيراً وبعد فترة كسوف جديدة دامت نحو نصف قرن تقريباً (٨٠٠ ـ ٧٥٠) أعاد الأشوريون الكرّة. وأسّس تغلت فلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٤)، وإثر انتصارات أكثر ثباتاً، الأمبراطورية الأشورية الكبرى وهي سادس أمبراطورية ما بينهرية وأول أمبراطورية كبيرة في الشرق. وإن أكثر من ١٢ قرناً تفصلها عن سابقتها البعيدة أي أول أمبراطورية بابلية أو أمبراطورية حمورابي (حوالي ٢٠٠٠).

II. الأمبراطورية الأشورية ومصر من ٧٣٢ إلى ٦٨٩

١ ـ الإطار التاريخي حوالي العام ٧٥٠

كان النصف الأول من الألف الأول ق.م. يعتبر العصر الذهبي للتجارة الشرقية. ففينيقيا، وبخاصة صور، كانتا فيه في أوجهما. فلقد ملأ الانتشار الاقتصادي والتجاري والسياسي وحتى العرقي، وبدءاً من العام ١٢٠٠، الغرب باسم الفينيقيين ونشاطهم. وفي فلسطين تابعت مملكة إسرائيل ثم خليفتاها مملكتا إسرائيل ويهوذا بين النجاح تارة والإخفاق طوراً، السياسة التي بدأها داود وسليمان. وفي سورية الداخلية وسورية الشمالية كان الملوك الآراميون الصغار في كل من دمشق وحماه وشرق الأردن يتابعون نزاعاتهم الداخلية تارة ضد بعضهم بعضاً، وطوراً ضد ممالك فلسطين. وهكذا كانت تلك المجموعة الكبيرة من الدول الصغيرة في المنطقة السورية تعيش كل منها في عزلة سياسية رائعة وهي غير مبالية أو غير واعية للأخطار الخارجية التي ترتسم في أفق سورية المجزّأة. ذلك أن أشور، وكالبركان المتأجّج كانت تقذف منذ العام ٩٠٠ حممها اللاهبة وتنذر بتفجّرات وشيكة.

ويقول كونتنو: «خلال كل تلك المرحلة تظهر المدن الفينيقية مثل تلك الفردية التي كلّفت غالياً جداً مختلف بلدان آسيا الغربية القديمة. فلو أنها اتّحدت وتحالفت مع مدن فلسطين وسورية الشمالية فإن استقلالها ما كان أبداً ليتعرّض للتهديد. ولكن الخصومات والأحساد دفع بعضها إلى الاتحاد مع مصر وسواها مع أشور. وكانت التحالفات تعقد ثم تفسخ وأحياناً تعلن الحرب بين المدن المتنازعة. وغالباً ما قام ملوك صور بحمل لقب ملوك الصيدونيين الذين جعلوا منهم خاضعين لهم. فهذه النزاعات المستمرّة كلّها أسباب ضعف حيال العدو المشترك.

إن العديد من المؤرّخين اعتبروا القوّة الفينيقية غير مرهوبة؛ فهل يجدر بنا أن

نعارض هذا الراي؟ حتى لو أخذنا بعين الاعتبار أن الأراضي الفينيقية التي وإن يحدّها غالباً الجبل فقد تخطّته من بعض النقاط، وبالرغم من كثافة سكانها، يتجلى بوضوح أن قوّتها ضعيفة إذا ما قيست بقوّة مصر وأشور. ومع هذا رأينا في بعض الحالات النادرة حين كانت فينيقيا، مستلهمة الصالح العام تقوم بالاتحاد مع فلسطين وسورية الشمالية، كان مثل ذلك الإتحاد يشكّل خصماً لا يُستهان به»[2].

وفي آسيا الصغرى كان الفريجيون يسيطرون على وسط تلك البلاد منذ انهيار الأمبراطورية الحثّية في القرن الثامن، وكانوا يتّصلون من جهة ببحر إيجه ومن الجهة الثانية بمنطقة الفرات الشمالية. وحول فريجيا الأناضولية كانت تتحلّق ممالك هامة منها مملكة كيليكيا بين الأناضول وبلاد ما بين النهرين وسورية ومملكة كوماجين. وهذا الموقع الاستراتيجي والتجاري أمّن لمملكة كيليكيا دوراً صَداريًّا. وبعد كيليكيا تمتد ليقيا وكاريا وليديا وكلّها تهلّنت لاحقاً ولعبت دوراً هاماً في أقدار اليونان الآسيوية. وأخيراً هناك قبرص القريبة من سورية الشمالية وآسيا الصغرى والتي ستقاسم مصير هذه الأخيرة ومصير سائر مناطق آسيا الغربية.

في بابل كانت قبائل الكالدو الأرامية قد استقرّت جنوب البلاد في جوار الخليج العربي وأولئك سيكونون الكلدان المقبلين الذين سيؤسّسون قريباً الأمبراطورية الكلدانية أو البابلية الجديدة.

وأما في مصر فقد كانت السلالة الليبية تحكم البلاد.

٢ ـ موجات شمالية جديدة في آسيا الصغرى. وتوسّع السيمّريين والسيتيين جنوباً

أ ـ السيمّريون في شمال البحر الأسود والسيتّيون في شمال بحر الخزر

ومنذ العام ١٢٠٠ تاريخ غزو شعوب الشمال والبحر فإن السيمّريين والسيتيين كانوا قد استقرّوا في سهوب روسيا الجنوبية. وهذان الشعبان الآريان يتكلّمان لغة شبه مشتركة، ومتقاربان مع آريي إيران. وقد احتلّ السيمّريون السهب الممتد شمال البحر الأسود فضلاً عن شبه جزيرة القرم التي احتفظوا باسمها، فيما استقرّ السيتيون في شمال بحر الخزر.

2 Contenau, *L'Asie occidentale ancienne*, p. 272.

ب ـ البدو الخيّالة والمحاربون المرهوبون

وعلى نقيض أبناء جنسهم الماديين والفرس الذين باستقرارهم على هضبة إيران تشرّبوا الحضارة الشرقية في بابل ونينوى، فإن السيمّريين، وبخاصة السيتيين، ظلّوا على بداوتهم. وهم على ممارستهم نوعاً من الحياة تمليه الظروف الطبيعية في السهب الروسي ـ السيبيري فإنهم كانوا يتقاربون بالأحرى، في عاداتهم الاجتماعية، مع القبائل التركية ـ المغولية التي كانت في تلك الفترة نفسها تتحرّك في الطرف الشرقي من ذلك السهب نفسه، في منغوليا.

إن هؤلاء الشركاء الجدد الذين سيغيّرون الصورة السياسية في شرق الهضبات الأدنى هم محاربون بواسل وفرسان مرهوبون «من حملة الأقواس والرماح وهم قساة وبلا رحمة»، وإن موجتهم «تدوي كصوت البحر الهادر» (إرميا).

وخلافاً لهجرة الماديين والفرس الذين وقبل ثلاثة إلى أربعة قرون قد دخلوا ببطء إلى هضبة إيران بحثاً عن مراع، فإن توسّع السيمّريين والسيتيين باتجاه الجنوب يشبه بالأحرى موجة أسلافهم وأبناء جنسهم التي حصلت العام ١٢٠٠ أي شعوب الشمال والبحر: «إنها حمم من المحاربين والخيّالة المرهوبين والنهّابين انصبّت على امتداد المنحدرات الجنوبية من سلسلة الجبال القوقازية» (غيرشمان).

ج ـ السيمّريون في آسيا الصغرى

وفي ما بين العام ٧٥٠ و٧٠٠ تدفّق قسم من السيتيين نحو الغرب عابرين الأورال والفولغا وغزوا بلاد السيمّريين، ففرّ هؤلاء نحو آسيا الصغرى، حيث كوّنوا مع الآسيانيين المحليين اتحاد شعوب على الساحل الجنوبي من البحر الأسود في منطقة سينوب. ومن ملجئهم الجديد هذا فإن السيمّريين سوف يشنّون غارات دورية ستجتاح المناطق المجاورة: فريجيا، كبادوك، كيليكيا، البنطس، وحتى أشور.

د ـ السيتيون في شمال إيران

وبعدما انطلقوا في مطاردة السيمّريين، فإن شعوب السيتيين، هؤلاء الروس الجنوبيين المستقبليين، أخذوا اتجاهاً آخر فاجتازوا القوقاز ووجدوا أنفسهم في اتصال مع الأمبراطورية الأشورية (حوالي ٧٠٠). ثم استقرّوا جنوب بحيرة أورميا في مملكة

مانا. وأما المملكة التي أسّسوها فغطت المنطقة التي سمّيت لاحقاً أتروباجين وهي حالياً مقاطعة أذربيجان الإيرانية.

وهكذا نشأت مملكتان جديدتان متقلقلتان تشيعان أضطرابات وحروباً وسلباً على حدود العالم المتحضّر الشمالية.

وطوال فترة ٧٠ عاماً (٧٠٠ ـ ٦٣٠) فإن السيمّريين والسيتيين، ثم السيتيين بمفردهم بعد طردهم الأوائل، سيروّعون الشرق الأدنى وهم يتنقّلون على جيادهم في مناطقه وينهبون ثرواتها. وقد بلغت هجوماتهم آسيا الصغرى وأشور وشمال سورية وفينيقيا وحتى حدود مصر.

«إن هذا التحرّك الواسع للشعوب، والذي تردّد صداه حتى في كلمات أنبياء إسرائيل يمثّل أول ظهور تاريخي لبدو السهوب الشمالية (روسيا المقبلة) وسط حضارات الجنوب القديمة، وهي حركة سنراها تتجدّد خلال نحو عشرين قرناً من التاريخ». [٣]

إن تلك كانت الموجة الشمالية التي انطلقت العام ٧٥٠ والتي، بسبب الاضطرابات التي أحدثتها، سوف تقلب الأوضاع السياسية في الشرق الأدنى. وكردّ فعل على هجماتهم واجتياحاتهم تسبّب السيمّريون والسيتيون بنشوء الأمبراطورية الأشورية الكبرى ومن ثم زوالها. ولسوف يساعدون الماديين والفرس على الانحدار من إيران إلى بلاد ما بين النهرين ثم في بناء الامبراطورية المادية ـ الفارسية الكبرى.

٣ ـ تغلت فلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧)، سيّد الهلال الخصيب وأرمينيا

لقد بات الاستعمار الأشوري وروح الغزو، كما رأينا، أكثر ترسّخاً منذ قيام تغلت فلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧) الذي مهّد وصوله إلى العرش بلوغ القوة والتوسّع الأشوريين أوجهما: فأشور ستجابه، بعد اليوم، أعداءها بوسائل فتح أشدّ فظاظة وستنفّذها بإرادة صلبة ولا تعرف الرأفة.

«فالمهزومون سيعاملون بوحشيّة مطلقة: الملوك تقطع رؤوسهم وتسلخ جلودهم، ويرفعون على الخازوق أو يدفنون أحياء أو يربطون بالسلاسل في أحناكهم

3 R. Grousset, *L'Empire des Steppes*, p. 38.

كالكلاب، وأما المحاربون فيعدمون بالجملة وينفى الشعب المدني بغالبيته إلى مناطق بعيدة قطعاً لجذور أي مقاومة على الأرض... وأما الحكم فلا يعود بعدها بيد الأمراء المحليين، الذين تحرّكهم روح الثأر أو القومية بل يصبح الزمام لقادة أشوريين».[4]

أ ـ غزو سورية وفلسطين (٧٣٨ ـ ٧٣٢)

ومنذ تسلّمه العرش، قام تغلت فلصر الثالث بردّ الأورارتيين (الأرمن) بعدما كانوا قد تقدّموا حتى كركميش على الفرات، واستعاد دياربكر. ثم أخضع الملوك الحثّيين الجدد الذين كانت مملكتهم تمتد من كركميش حتى مدينة أرواد الفينيقية. ونفى قسماً من السكان واستبدلهم بآراميين استقدمهم من جبال زاغروس وأورارتو ممن وصفهم بأنهم «جبليون مضطربون سيهدأون، بحسب اعتقاده، ما أن يعيشوا أمام البحر». وحوّل كل سورية الشمالية إلى مقاطعة يحكمها قادة أشوريون (٧٣٨) فيما يدفع ملوك دمشق وإسرائيل وبيبلوس وصور وكركميش وكيليكيا، الجزية للظافر. وقد أرسلت إليه زبيبة ملكة سبأ (الجزيرة العربية) جمالاً.

وفي العام ٧٣٤ انحدر تغلت فلصر أكثر نحو الجنوب فاجتاح فلسطيا واحتل غزّة التي هرب ملكها إلى مصر. وكانت ملكة جديدة لسبأ هي شمسي قد أرسلت له جزية وهدايا: جمالاً، ذهباً، فضة، عطوراً. وتمّ وضع حكام أشوريين في المناطق المتاخمة مع الجزيرة العربية ومصر.

وفي العام ٧٣٢ ولدى تلقّي الأمبراطور الأشوري طلب مساعدة من ملك يهوذا ضد ملك دمشق زحف تغلت فلصر باتجاه دمشق واحتلّها وقتل ملكها رزون وسبى سكانها واجتاح أراضي إسرائيل. ثم اعتبر دمشق مقاطعة أشورية واستقدم جيوش احتلال وحاكماً أشورياً لها. في حين اعتبر ملوك أورشليم وآدوم وأشقلون مجرّد ملوك خاضعين أو تابعين. كما تمّ تعيين الأمير الأمبراطوري شلمنصّر حاكماً على فينيقيا.

ب ـ إحتلال بابل (٧٣١)

في العام ٧٣١ استولى تغلت فلصر سيد سورية وفينيقيا وفلسطين على بابل حيث توّج نفسه ملكاً عليها تحت اسم بولو (٧٢٩).

4 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 678.

«وأضاف تغلت فلصر الذي وحّد جناحي بلاد ما بين النهرين إلى لقبه الأصلي «ملك سومر واكاد» لقباً آخر هو: «ملك الأقطار الأربعة» وشاركيشاتي، وتلك كانت المرّة الأولى التي تبرهن فيها أمبراطورية سامية صحّة هذا اللقب البروتوكولي باحتلالها الفعلي للنقاط الأربع الرئيسية في آسيا الغربية».[5]

ج ـ وفاة تغلت فلصر وتمرّد فينيقيا

وفي العام ٧٢٧ توفي تغلت فلصر وعاد ابنه شلمنصّر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢) وهو نائب الملك في فينيقيا إلى نينوى لتسلّم العرش الأمبراطوري مكان أبيه. وما أن غادر حتى نشب تمرّد عام في فينيقيا بمؤازرة ايلولاي ملك صور وصيدا، ويدعى بالأشورية: لولي. وانضمّت إسرائيل إلى صفوف المتمرّدين. ومن أجل قمع هذا التمرّد وجّهت حملة بحريّة ضد صور قوامها ٦٠ سفينة من صيدون وبيبلوس وأرواد. ونجح الصوريون في تدمير الأسطول المعادي وأسروا ٥٠٠ رجل. وأخفق الحصار البحري المضروب حول صور تماماً إثر خمس سنوات من العناء (٧٢٢).

وحتى العام ٧٢٢ ظلّت السيادة الأشورية على تزعزع حيث أن المدن الفينيقية وإسرائيل ويهوذا ودمشق وكل تلك الدول الصغيرة، منفردة أو مجتمعة، بقيت في حالة عصيان مستمرّ. لكن وبدءاً من العام ٧٢٢، فإن تلك الأوضاع سرعان ما أخذت تتحسن مع مجيء الأباطرة العظام الذين سيتعاقبون.

٤ ـ في أيام سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥)

أ ـ توطيد الفتوحات. تدمير مملكة إسرائيل (٧٢٢)

وتماماً على صورة سميّه (حامل اسمه) سرجون الأول (٢٧٢٥ ـ ٢٦٧٠) أو سرجون القديم ملك أغاده، لم يكن سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥) الذي خلف شلمنصّر الخامس من الدم الملكي بل كان عسكريًا حمله الجيش إلى العرش. وهذا الملك الجندي كان حيويًا وشعبيًا إذ منذ بداية سنوات حكمه حلّ بالسلاح مسألة إسرائيل التي كان ملكها «يتآمر مع مصر» ويتهرّب من دفع الجزية السنوية. فاحتلّ السامرة إثر حصار دام ثلاث سنوات وكان قد بدأ في أيام شلمنصّر الخامس. وسبى ثلاثين ألف إسرائيلي إلى بلاد ما بين النهرين حيث أقاموا على ضفة الخابور وفي مدن الماديين. وجاء بمستوطنين من بابل وسورية الشمالية والجزيرة العربية وأحلّهم في

5 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, P. 682.

السامرة للقضاء على الروح القومية في الإسرائيليين. وقد ميّزت هذه الهزيمة التي أنزلت بملك السامرة نهاية الحياة المستقلّة بالنسبة إلى الإسرائيليين. أما مملكة يهوذا فستستمرّ بعد فترة ١٣٥ عاماً وسط تعتيم من التبعية.

ب ـ التمرّد في سورية. معركة كركر (٧٢٠)

وبعدما أصبح الأشوري سيد السامرة وعاهل أورشليم بات الآن على أبواب مصر. فامبراطورية الهلال الخصيب التي أنشأها حديثاً سرجون الثاني أصبحت مصدر قلق للفراعنة. وكردّ فعل على ذلك حاول فرعون نقل خط دفاعه إلى كنعان الجنوبية. وستساعده الظروف الملائمة على تحقيق مخطّطه هذا. ففي العام ٧٢١ تم استدعاء سرجون الثاني إلى بابل بسبب تمرّد حصل فيها. فما كان من ملك مصر بوكوريس إلا أن رأى الفرصة مناسبة فاستمال مدن السامرة ودمشق وحماه وسيميرا (٧٢٠) إلى جانب قضيّته وجاء بجيشه إلى كركر على العاصي حيث نشبت معركة سحق خلالها المتحالفون، تماماً كما حصل العام ٨٥٤. فسلخ ملك حماه حياً وأنزلت في مدينته مجموعة كبيرة من المستوطنين الأشوريين وعُيّن عليها قائد جيش حاكماً. وتابع سرجون الثاني زحفه نحو الجنوب فهزم المصريين في رفح جنوب غزّة ونفى عشرة آلاف رجل من رفح، وحانون ملك غزّة إلى الشمال.

ج ـ استعادة بابل من يد الكلدان (٧١٠)

وفيما كان سرجون يحارب على جبهة سورية وفلسطين اغتنمت بابل الفرصة لتنفض عنها النير واستقلّت. ونهضت قبائل كالدو الآرامية (الكلدان المقبلون) من مخابئها في مستنقعات بلاد البحر (سومر القديمة وكلدة المقبلة) وأعلنت زعيمها مروداخ ـ بالادان الثاني ملكاً عليها. وقد تولّى مروداخ هذا، يدعمه بدو السوتو وسواهم من القبائل الآرامية فضلاً عن عيلام، الاستيلاء على بابل (٧٢١). لكن سرجون استردّها منه العام ٧١٠. وأما بابل التي صارت تدعى بعد الآن كلدة فقد نفى سرجون آراميها إلى كوماجين واستقدم إليها آلاف الحثّيين من آسيا الصغرى.

د ـ إخماد الفتن في أرمينيا وآسيا الصغرى. احتلال قبرص (٧٠٩)

كان سرجون وفي العام ٧١٤ قد قمع تمرداً في أرمينيا (أورارتو) واستولى على غنيمة حرب ضخمة وثمينة. كما أنه وما بين العام ٧١٣ و٧٠٥ سقط تمرد قام به ملوك فريجيا وكيليكيا والحثيين الجدد وشمال سورية فهزموا جميعاً. وتم إقصاء سكان

تلك المناطق الى دمشق وفلسطين واستبدلوا باشوريين وآراميين وبدو. وفي العام ٧٠٩ احتلت قبرص التي أسهمت في تمرد كيليكيا بعد هجوم بحري دام سبعة أيام وصارت دولة تابعة.

هـ ـ وفاة سرجون الثاني (٧٠٥)

وفي العام ٧٠٥ اغتيل سرجون الثاني في خورساباد (قرب الموصل) حيث كان قد أقام مقره المفضل المعروف بدور شاروكين أو قلعة سرجون. وقد استخلص النبي أشعيا في التوراة العبرة من هذه النهاية بقوله: ان الذي كان يجعل الأرض تهتز والامبراطوريات تتزعزع، والذي كان يحول العالم الى صحراء ويجتاح مدنه ولا يطلق سراح أسره ـ حتى أنه لا يرقد في مسكنه، قد ألقي بعيداً عن قبره كغصن شجرة حقير».

و ـ منجزات سرجون الثاني

«لقد أنعش سرجون ازدهار بلاده عن طريق فتح أسواق جديدة وتنفيذه لأعمال ري مائية. وأنشأ مكتبة نينوى التي صارت في أيام حكم أشور بانيبال مستودعاً للأدب القديم، وكانت تستخدم في الوقت نفسه كدار للمحفوظات الرسمية... وقد حاول سرجون تحقيق وحدة الشعوب الخاضعة لحكمه ليس بنفي سكان البلدان المحتلة وحسب كما فعل والده وإنما بإقامة مستوطنات من الأشوريين في المراكز الرئيسية وباستبدال الأمراء المهزومين بحكام من قادة الجيش».[6]

٥ ـ سرجون الثاني ومصر

إن تأسيس أمبراطورية أشورية كبرى تضم سورية وفلسطين كان يشكل تهديداً كبيراً وخطيراً بالنسبة الى استقلال مصر. ولهذا السبب، وكما رأينا، فإن فراعنة مصر ومنذ العام ٢٥٠٠ حاربوا كل كيان سياسي كبير كان يقوم على حدودهم الفلسطينية. وإن مصر، متعظة من التجارب، وبعد طرد الهكسوس (حوالي العام ١٦٠٠)، أعلنت نفسها فجأة قوة أمبريالية فاحتلت فلسطين وفينيقيا ومنعت تعديات الميتانيين ثم حثي الشمال وأحبطتها.

أ ـ عجز مصر. الغزو الاثيوبي (٧٣٠)

ولسوء الحظ كانت مصر في القرن الثامن ما تزال تعيش حالة عجز وتجزئة وقد شجع على الاجتياح الأشوري لسورية وفلسطين، تنافس الملوك الصغار السوريين ـ

6 Delaporte, *Le Proche-Orient asiatique*, p. 253.

الفلسطينيين بقدر ما شجعت المعونات الضئيلة التي كان يمدهم بها فرعون في تصرفهم هذا.

وعندما اعتلى تغلت فلصر الثالث فاتح سورية وفلسطين العرش العام ٧٤٥ كانت سلالة الفراعنة الليبيين الحاكمة منذ العام ٩٥٠ على وشك إخلاء منصبها لسلالة جديدة من الغزاة الاثيوبيين. وإن الفوضى التي كانت في ذلك الوقت منتشرة في وادي النيل كانت تجعل من تلك البلاد فريسة سهلة لكل مهاجم مصمم على احتلالها.

وفي ذلك العصر كانت مصر مطمئنة من جهة آسيا. ففلسطين ـ سورية ما تزال مجزأة وأشور بعيدة. غير أنه الى أقصى الجنوب في بلاد كوش (أثيوبيا الاغريق) وهي ممتلكة مصرية قديمة كانت تحكم سلالة من الملوك حذت حذو ملوك طيبة، فاسست في مدينة ناباتا حكومة تيوقراطية أمونية. وكما في طيبة فقد كان الملك في ناباتا يسمي نفسه: «النبي الأول لأمون» ولا يتخذ أي قرار قبل استشارته لتمثال هذا الاله. وكان معبد ضخم كرس لأمون قد بني على الجبل وزين بطراز طيبي صرف. إن اللغة المصرية كانت على الأقل في البداية اللغة الرسمية للدولة. وكان الملوك ـ الأحبار في ناباتا يعتمدون على قوات ليبية يساعدها مرتزقة سود.

وكان بيانخي الملك ـ الحبر في ناباتا ساذجاً، «مغروراً قليلاً غير أنه في الحقيقة كان لا يخلو من خفة الظل». وبدافع من حميته الدينية وطمعه الشخصي اجتاح مصر (٧٣٠) فدخل طيبة من غير مقاومة. وبعدما قام بيانخي بواجباته الدينية في معبد آمون زحف الى ممفيس فاحتلها إثر هجوم صاعق فاستسلم اليه الملوك الأربعة ومختلف مؤسسي السلالات الذين يتقاسمون البلد حتى البحر والذين قبلوا به سيداً عليهم. وقد أبقاهم بيانخي على عروشهم وإقطاعاتهم وعاد الى ناباتا فيما كانت الشعوب تحييه على طول مجرى النيل «ولعله كان في هتافاتهم من الحماسة أقل مما كان فيها من الابتهاج برؤية الأجنبي يبتعد عن البلاد».

ومنذ رحيل بيانخي استعاد مختلف الملوك السلاليين استقلالهم الذاتي. فملك تفنخت (٧٣٠ ـ ٧٢٠) على سايس وهليوبوليس وممفيس وأسس مع ابنه بوكوريس (٧٢٠ ـ ٧١٥) السلالة الرابعة والعشرين. وقد اشتهر بوكوريس ووالده في ذاكرة المصريين كأبطال قوميين مجسدين المقاومة ضد الأجنبي. وتعتبرهما الأساطير والتاريخ بين أعدل ملوك مصر وأكثرهم ثقافة. كما أن بوكوريس إشتهر أيضاً كمشترع كبير.

ب ـ المصريون يهزمون قرب غزة (٧٢٠)

وفي الوقت الذي كان فيه بوكوريس يرتقي العرش (٧٢٠) كان سرجون الثاني ملك أشور قد احتل لتوه السامرة (٧٢٢) عاصمة مملكة إسرائيل التي كان ملكها الى حين قصير حليفاً لمصر. وقام بوكوريس سيد الدلتا الغربية التي اعتبرها مهددة من قبل هذا الفاتح الآسيوي الجديد، بتحريض الأمراء الفلسطينيين والسوريين على التمرد ضد الأشوريين خلال انشغال ملكهم سرجون الثاني بسحق تمرد في بابل، ووعد أولئك الأمراء المتحالفين بمساعدتهم عسكرياً. وكانت معركة كركر على العاصي، وتقدم سرجون الثاني جنوباً، كما نعلم، حتى رفح قرب غزة حيث هزم القائد المصري سيبو الذي تسميه التوراة الفرعون سو. لكنه قطع زحفه الظافر نحو مصر (العام ٧٢٠) ليعود مسرعاً الى بابل من أجل قمع تمرد نشب فيها.

٦ ـ في زمن سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١)

أ ـ توطيد الفتوحات

لقد ورث سنحاريب الذي خلف أباه سرجون على العرش وضعاً مأساوياً. فالشعوب الخاضعة التي بلغها نبأ موت سرجون سرعان ما قامت بعصيان عام. وكان على سنحاريب وهو المحارب الكبير «أن يستخدم أعوام حكمه الأربعة والعشرين في سد الثغرات وتدعيم المواد في البناء الاصطناعي الذي يمثل الأمبراطورية الأشورية». (موريه).

ب ـ إنتفاضة كلدان بابل وهزيمتهم (٧٠٤)

إن ملك الكلدان ميروداخ بالادان الثاني الذي سبق واحتل بابل العام ٧٢١ والذي طرده منها سرجون الثاني العام ٧١٠ عاود الكرة. وبدعم من ملك عيلام والعرب عاود احتلال بابل. غير أن سنحاريب طرده منها العام (٧٠٤). وأحل مكانه الكلداني بيليبني الذي ترعرع في بلاط نينوى والذي كان يسميه «كلبه الصغير»، وأفنى قبائل عديدة وأبعد ٢٠٠,٠٠٠ أسير الى أشور (٧٠٢).

طورد ميروداخ حتى مسقط رأسه فالتجأ الى عيلام. ثم عزل سنحاريب بيليبني الذي تواطأ مع ميروداخ واستبدله على عرش بابل بابنه أسور نادينشوما (٧٠٠). ولم يلبث هذا الأخير فترة قصيرة حتى خطفه ملك عيلام.

ج ـ انتفاضة الفينيقيين وإخضاعهم (٧٠١)

وبعدما تخلص سنحاريب من ميروداخ واطمأن من ناحية بابل استدار نحو صور التي كانت قد تمردت. فلقد ألحق احتلال قبرص على يد سرجون الثاني العام ٧٠٩ الضرر بمصالح الفينيقيين الذين سارعوا الى استعادتها بتشجيع من مصر. كما كان إيلولايوس ملك صور قد نظم ثورة شاركت فيها مدن أشقلون ويافا وعقرون وملك يهوذا (٧٠١).

كان سنحاريب رهيباً وإمدادات مصر هزيلة. وعند مهاجمة ملك صور فإنه فر الى قبرص. وأما صيدون وسربتا (الصرفند) وعكا فاستسلمت، وعينت أشور ملكاً عليها إيتوبعل الثاني وهو من سلالة ملوك صيدون. وبعدما أصبحت صيدون عاصمة من جديد تحت وصاية سنحاريب استعادت تفوقها في فينيقيا، وكانت تدفع جزية سنوية. فيما بقيت صور، المطمئنة في جزيرتها يحميها أسطولها سيد البحار، مستقلة غير منتهكة السيادة. على أن أرواد وملكها عبدي ملك، وبيبلوس وملكها أورو ملكي، وأشدود وغزة كوفئت من قبل أشور لقاء التزامها جانب الحياد.

د ـ معاودة احتلال فلسطين (٧٠١)

إن سنحاريب، وقد نجح في حل مسألة فينيقيا، تابع زحفه نحو الجنوب فاحتل جميع المدن الثائرة على الساحل الفلسطيني وسبى ملوكها الى أشور مع عائلاتهم وآلهتهم. ثم هزم قوات ملك كوش وأمراء الدلتا المصرية جنوب عقرون وطردهم الى بلادهم (٧٠١).

وإثر هذا الانتصار مشى سنحاريب لمواجهة حزقيّا ملك يهوذا الذي نجح في تجنيب عاصمته مغبة النهب بدفعه «ثلاثين طالناً من الذهب و٨٠٠ طالن من الفضة وأسرّة من العاج وأسلحة ثمينة» (٧٠١).

هـ ـ تمرد بابل (٧٠٠)

في العام ٧٠٠ كان ميروداخ العائد من منفاه في عيلام قد عاود احتلال عرش بابل. فيما كان سنحاريب الذي انتهى من إعادة الهدوء الى فينيقيا وفلسطين يسارع عائداً الى نينوى وسرعان ما عاد وانطلق منها لمحاربة ميروداخ في بابل. فأمر بإنشاء أسطول نهري بواسطة عمال صوريين وصيدونيين وقبارصة وحمله بقوات عسكرية اتجه بها الى عيلام حليفة ميروداخ. وبعد معارك عديدة على طول نهر دجلة،

وبخاصة قرب مدينة بغداد الحالية، سقطت بابل من جديد العام ٦٩٧ في يد محرض جديد.

٧ ـ سنحاريب ومصر

أ ـ الأثيوبيون يعاودون احتلال مصر

إن بيانخي، ملك ناباتا الذي كان العام ٧٣٠ قد احتل وادي النيل ثم جلا عنه، لا يزال يعتبر نفسه الملك الرسمي على مصر كلها. ولدى وفاته العام ٧١٦ فإن أخاه شبكة (٧١٦ ـ ٧٠٣) اعترف به ملكاً في طيبة، حيث كانت تمارس سيادته بواسطة عابدة آمون الالهية. وكان مصير الملك بوكوريس الذي نازع شبكة على سيادة الدلتا، الهزيمة والأسر والقتل (٧١٦). وغادر الفرعون الجديد ناباتا واستقر في طيبة وممفيس حيث سيقيم أيضاً خلفاؤه الثلاثة.

«لقد تصرف شبكة (٧١٦ ـ ٧٠٣) كفرعون تقليدي فاستأنف أعمال البناء الكبرى في طيبة وممفيس وبوباستيس وتانيس وأحيا العقائد الدينية القديمة وأعاد نشر نصوص اللاهوت. . . وكان يتبادل الرسائل والهدايا مع سرجون»[٧].

ب ـ مؤامرات الفرعون في فلسطين

غير أن شاباتاكه (٧٠٣ ـ ٦٨٩) ابن شبكة وخلفه أثار بدسائسه تحالفاً لملوك وأمراء فلسطينيين وسوريين ضد أشور. فاحتل سنحاريب السامرة وفرض الحصار على أورشليم. وأرسل شاباتاكه إمدادات الى ملك يهوذا. «وسخر سنحاريب من المعونة التي كان يمكن لمصر أن تقدمها في ذلك العصر الى المدينة المحاصرة، فأرسل يسأل حزقيّا ملك يهوذا: بمَنْ إذن وضعت ثقتك عندما ثرت عليّ؟ هكذا، وضعتها في مصر واتخذت سنداً لك تلك القصبة المكسورة التي تدخل في يد من يتكىء عليها وتثقبها: فذلك هو شأن فرعون، ملك مصر مع كل الذين يولونه الثقة. . . وقد كان ازدراء الملك (سنحاريب) له ما يبرره».[٨]

ج ـ مصر تنجو من الغزو

في العام ٦٩٠ عزم سنحاريب على وضع حد لمؤامرات فرعون فقرر تصفية

7 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, p.689.

8 Drioton et Vandier, *op. cit,* p. 524.

الحساب معه. فاتخذ من معاقبة الزعماء العرب الذين زودوا بابل وأورشليم بالامدادات ذريعة ليتوغل هذا الملك الأشوري في الأراضي العربية (الصحراء السورية المابينهرية) حيث اكترى جمّالين وجمالاً واتفق مع المشايخ العرب على توفير المؤن والنقل لقواته الأشورية عبر صحراء سيناء. ولدى عودته فإن ملك أشور سيضيف الى ألقابه لقب «ملك العرب». وهكذا أقام معسكراً في لاكيش قرب غزة حيث جمع جيشاً هائلاً بهدف اجتياح الدلتا.

ولم تنجُ مصر من الثأر الأشوري إلا بأعجوبة. إذ أن الجيش الأشوري فتك به الطاعون ولهذا السبب رفع حصاره عن أورشليم وغادر فلسطين.

د ـ الفرعون تاهاركا يعيد الوحدة الملكية

تاهاركا (٦٨٩ ـ ٦٦٣) إبن أخ شاباتاكه وخلفه. كرّس نفسه لادارة مصر. إن تاهاركا متخلياً عن إدارة مصر العليا لأحد مواطنيه السود وليكون على مقربة من الحدود الأسيوية، اختار مدينة تانيس كمقر ملكي. ويسود الاعتقاد أنه بفضل طبعه الحازم توصل الى فرض نفسه كفرعون أوحد على أرجاء مصر. وكان هذا الفرعون قد أنشأ ورمم صروحاً عديدة خلال عهده في كل من ناباتا والكرنك وممفيس وتانيس.

هـ ـ وفاة سنحاريب (٦٨١).

في العام ٦٨٩ عاد سنحاريب الى نينوى ليتخلص من ميروداخ الذي كان ما يزال مسيطراً علي كلدة. فاقتحم الملك الأشوري بابل ونهب المدينة وأعلن نفسه فيها ملكاً. وفي العام ٦٨١ اغتيل سنحاريب في بابل بتحريض من قِبَل إثنين من أولاده، اللذين كانا قد حركا ثورة في تلك المدينة.

III. الأمبراطورية الأشورية وغزو مصر. انحطاط الأمبراطورية وانهيارها

١ ـ الأمبراطورية الأشورية في أيام أسرحدون (٦٨٩ ـ ٦٦٩). الغزو الأول لمصر

أ ـ إعادة السلام الى بابل

أسرحدون (٦٨٩ ـ ٦٦٩)، هو الابن البكر لسنحاريب الذي لم يشارك في مؤامرة اغتيال أبيه وقد خلف والده على العرش. وهو إبن وزوج أميرتين بابليتين، وقد رفع هذا الملك بابل من ركامها واتبع مع كلدة سياسة متساهلة. ولو أسقطنا بعض الثورات الكلدانية التي قمعت بحزم فإن بابل نعمت بالسلام الذي عاد اليها وبقيت هادئة.

ومن أجل إنجاز فتوحاته ووضع حد لمؤامرات الفراعنة في فلسطين لم يكن يدور في خلد أسرحدون إلا وسيلة واحدة وهي غزو مصر.

ب ـ تمرد صيدون وقمعها (٦٧٦)

بعد إعادته السلام الى ربوع بابل، عاد أسرحدون الى فلسطين، فوجد وضعاً مضطرباً (٦٧٧).

فبتحريض من فرعون كان ملك صيدون عبدي ملكوتي قد خلع النير الأشوري وجر ملك كيليكيا ساندواري الى حركة العصيان أيضاً. فما كان من أسرحدون إلا أن عاد واحتل صيدون وهدم أسوارها. «وصاد كالسمكة» ملكها وقطع رأسه (٦٧٦). وسبى قسماً من أهالي صيدون الى كلدة. وأقام مدينة جديدة سماها «قلعة أسرحدون» وأحل فيها مستوطنين كلدانيين وأقام على إدارتها حاكماً

أشورياً. ثم صعد الى جبال كيليكيا «وقبض على ملكها ساندواري كالعصفور وقطع رأسه» (موريه).

ج ـ أسرحدون في الجزيرة العربية

في العام ٦٧٥ وقعت محاولة غزو أشورية لمصر ولكنها توقفت بسبب غزو الماديين والسيتيين والسيميريين لأرمينيا مما استدعى عودة أسرحدون الى أورارتو. ثم إن الأمبراطور الأشوري معاوداً الكرّة العام ٦٧٢، تماماً كما فعل والده سنحاريب، توجه الى الجزيرة العربية أولاً للتزود بقوات وجمال معتادة على الصحراء ومن ثم للاتفاق مع الزعماء البدو حول موضوع نقل المياه والمؤن.

د ـ صور المحاصرة تقاوم ببطولة

ومن أجل تامين النقل بحراً فقد تم عقد اتفاق تجارة وصداقة مع بعل ملك صور (٦٧١) وبموجب هذا الاتفاق الذي ضمنته الآلهة الأشورية والفينيقية يوضع الأسطول الصوري في تصرف الأشوريين لنقل الغنائم. لكن ملك صور ما عتم أن نقض هذا الاتفاق رافضاً نقل الجنود الأشوريين بواسطة سفنه الى دلتا النيل. فحوصرت صور غير أنها قاومت ببسالة. وإن النصب المعروف في زنجرلي يحيي ذكرى هذا الحصار وكأنه نصر، ويظهر فيه الملك الأشوري ممسكاً ملك مصر وملك صور من شفتيهما برسن. لكن في الواقع لم يقبض على ملك مصر كما أن جزيرة صور ظلت عاصية ولم تنتهك هذه المرة أيضاً. وبعدما عجز أسرحدون عن الاستيلاء على صور او الاستعانة بأسطولها صمم على دخول دلتا النيل عن طريق صحراء سيناء بمساعدة ودعم من الزعماء العرب في الصحراء.

هـ ـ أول غزو لمصر (٦٧١)

وهكذا تحقق أخيراً حلم الأشوريين الكبير باحتلال مصر. فبعدما اجتاز أسرحدون بجيشه الصحراء وصل الى حدود الدلتا الشرقية. ومن هناك وبعد خمسة عشر يوماً من السير وصل ممفيس وفرض عليها الحصار ثم احتلها في نصف يوم. فما كان من الفرعون تاهاركا إلا أن فرّ شمالاً تاركاً عائلته وجميع أملاكه في قبضة المنتصر (٦٧١). وبعدما أعلن أسرحدون نفسه ملكاً على مصر العليا والسفلى وأثيوبيا، عمد الى تنظيم مصر إدارياً.

ومن بين السلالات الملكية المصرية التي هرعت للاعتراف بالفاتح كان أهمها امير طيبة ونيكاو ابن الفرعون بوكوريس وأمير سايس. «ويبدو أن المهزومين أظهروا جبناً كبيراً حيث أن نيكاو أعطى اسماً أشورياً لمدينته سايس ولابنه بساميتيك وقد يكون الأمراء الآخرون قد حذوا حذوه»[9].

«وباتت مصر السفلى مقاطعة أشورية. وكانت سياسة هذا الفاتح تتلخص بعبارة: «فرّقْ تَسُدْ» وهي سياسة تتلاءم تماماً مع طبائع الاقطاعية العسكرية في البلد الممزق: «كنت في كل مكان أعين الملوك والحكام والموظفين والكتبة». . . وعاد أسرحدون بغنائم كبيرة عن طريق الساحل الفينيقي حيث حفر على أحد صخور نهر الكلب نقشاً يحمل اسمه الى جانب نقش الفرعون رعمسيس الثاني. . . كانت الأمبراطورية الأشورية تمتد من الأناضول الى طيبة ومن البحر الأعلى (المتوسط) الى البحر الأدنى (الخليج العربي) وبمساحة أكبر مما كانت عليه في أي وقت من الأوقات أمبراطورية سرجون القديم أو أمبراطورية الفراعنة.

ولكن يا لتعاسة حظ الانتصارات الأشورية. فكل غزو ينبغي تحقيقه مجدداً! إذ أن مصر لم تكن طيعة أكثر من بابل أو عيلام»[10].

و ـ ثورة مصر (٦٦٩)

وإثر مغادرة أسرحدون الى نينوى بقليل عاود الفرعون تاهاركا الظهور من جديد على المسرح وحرض بضعة ملوك من السلالات الملكية الحاكمة في الدلتا ضد الفاتح الأشوري واستولى على مدينة ممفيس (٦٦٩). كما أن نيكاو أمير سايس وممفيس الذي كان قد رحب بالفاتح الأشوري وأبدى حماسة في تأييده عاد وانضم الى صفوف الثوار. ولما علم أسرحدون بأمره غضب وغادر نينوى متجهاً الى مصر على رأس جيوشه. غير أنه توفي على الطريق في نهاية العام ٦٦٩.

9 Drioton et Vandier, *op. cit.*, p. 528.
10 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 693, 694.

٢ ـ الأمبراطورية الأشورية في زمن أشور بانيبال (٦٦٩ ـ ٦٢٦). ذروة وانحطاط

تمكن أشور بانيبال (٦٦٩ ـ ٦٢٦) ابن الأمبراطور أسرحدون وخلفه بما تحلى به من شجاعة وذكاء من أن يوصل القوة والحضارة الأشوريتين الى ذروتهما. غير أنه قادهما أيضاً الى حتفهما.

أ ـ مصر تحتل مجدداً ثم تضيع مجدداً (٦٦٦ ـ ٦٦٣)

الاحتلال الثاني لمصر (٦٦٦).ـ في العام ٦٦٦ صمم أشور بانيبال على معاودة احتلال مصر فغادر نينوى على رأس قوة كبيرة من جيشه. وكان جيشه يتزود في طريقه بالرجال والمؤن من قبل أمراء وملوك الممر السوري ـ الفلسطيني. ولما بلغ الدلتا سار الى ممفيس فإحتلها من جديد فولى ملكها تاهاركا هارباً للمرة الثانية ولجأ الى النوبة (٦٦٦). وقد يكون الجيش الأشوري طارده حتى طيبة ولكن من غير أن ينهب في طريقه عاصمة الجنوب هذه. وأما أمراء السلالات الملكية في الدلتا الذين كانوا قد أيدوا محاولة تاهاركا فتم ترحيلهم الى نينوى. وبمبادرة رحمة قلما نلمحها في تصرف أي ملك أشوري أظهر أشور بانيبال رأفة حيال نيكاو فأجزل عليه الهدايا وأعاده الى سايس وأعطى ابنه بساميتيك (وهو فرعون عتيد) إمارة أتريبيس.

الأثيوبيون يعاودون الاستيلاء على طيبة وممفيس .ـ وإثر وفاة الفرعون تاهاركا العام ٦٦٣ خلفه ابن أخيه تانوتامون مرشح كهان ناباتا. وبعدما توج ملكاً في هذه المدينة نزل تانوتامون الى طيبة حيث كان أمراء السلالات الملكية، وبرغم تبعيتهم للأشوريين، يؤيدون السلالة الحبشية التي يعتبرونها سلالة قومية. فيما تبنت أميناردیس زوجة الاله آمون، أخت الملك تاهاركا وريثة لها.

استولى تانوتامون على ممفيس حيث قدم له أمراء الدلتا الولاء والطاعة. لكن رد الفعل الأشوري كان سريعاً وعنيفاً. إذ قام الأشوريون بإرسال حملة جديدة الى مصر. فما كان من تانوتامون إلا أن سعى الى إنقاذ نفسه بشكل مهين كما فعل تاهاركا في الماضي ومن غير أن يخوض أية معركة فالتجأ الى طيبة ومنها الى عاصمته النوبية ناباتا.

تدمير طيبة (٦٦٣). ـ إن الجيوش الأشورية التي انطلقت في مطاردة تانوتامون استولت على طيبة وقامت هذه المرة بنهبها. وكانت عملية نهبها شاملة حيث سلبت منها

غنائم كبيرة أرسلت الى نينوى. وبعد سقوط دور عاصمة الجنوب السياسي هذه فإنها لن تنهض أبداً بعد هذه الكارثة. وستكون بعد ذلك التاريخ مجرد بلدة صغيرة. وفي القرن الأول بعد المسيح نرى سترابون يصفها بالمدينة المهجورة.

نهاية السيطرة الحبشية على مصر. أثيوبيا تتخلى عن اللغة والكتابة المصريتين. ـ أنهت هزيمة تانوتامون وفراره المهين وتدمير طيبة الى الأبد السيادة الحبشية على مصر. ففي النوبة حيث سيستمر حلفاء تانوتامون في السلطة لقرون عديدة لاحقة فإن النفوذ واللغة والثقافة المصرية تلاشت تدريجياً و«لم تعد المملكة النوبية بعد الآن جزءاً من تاريخ مصر».

«ولن ينزل أي ملك أو أي جيش من كوش بعد الآن الى طيبة. وستستمر مملكة كوش حتى العصر الروماني. وبانفصالها عن مصر ستصبح أفريقية أكثر فأكثر وسترنو الى النيل الأعلى وتنقل عاصمتها الى مروا وتتخلى عن الكتابة الهيروغليفية واللغة المصرية لتعتمد لغة أفريقية وكتابة تسمى مرواتية، مكرسة بذلك انفصالاً نهائياً عن مصر والعالم المتوسطي. إن اليونانيين والرومان لم يتناهَ اليهم شيء عن هذا الموضوع سوى أساطير غامضة، وصوروا أثيوبيا على أنها مهد الحضارة في حين لم تكن سوى انعكاس باهت لعظمة مصر ومركز للحضارة الطيبية.

إن العام ٦٦٣ تاريخ يضفي سمعة مشؤومة على جيوش أشور بانيبال الشرسة... فتدمير طيبة بعد السامرة وبابل وصيدون والعديد من المدن الأخرى نشر الرعب في جميع أنحاء الشرق... وبقيت مصر الجريحة والرازحة في نظر أشور بانيبال أفضل ما لديه. وقد ظل هذا الأخير وعلى مدار خمس سنوات فقط (٦٦٥ ـ ٦٦٠) الأمبراطور الحقيقي للعالم الشرقي الذي يخيم عليه الرعب»[11].

خضوع ملك صور. ـ لقد وضعت هزيمة مصر حداً لتردد ملك صور حيث أن هذا الأخير، الذي كان قد رفض المشاركة في الحملة العسكرية الأشورية ضد وادي النيل، صار أكثر ليونة بعد انتصار أشور بانيبال. لذا وعندما مر هذا الأمبراطور في طريق عودته من مصر على الساحل قرب صور قدم اليه ملكها بعل ابنته لتنضم الى حريمه الملكي. فيما جدد ملكا أرواد وصيدون ولاءهما له. وللافادة من هذا الوضع الجديد وضعت البحرية الفينيقية نفسها في خدمة السيادة الأمبريالية الأشورية محاولة الاستئثار

11 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, p. 697, 698.

بحركة النقل البحري في المتوسط الشرقي لا سيما الخط البحري الذي يصل الغرب بالهند عن طريق مصر والبحر الأحمر.

تحرر مصر (٦٦٣). ـ وبدءاً من العام ٦٦٣ فإن الخط الذي حالف حتى ذلك الوقت دولة أشور بدأ يتحول عن تلك الدولة التوسعية. وقد كانت مصر هي الدولة الأولى التي سددت أول ضربة من شأنها زعزعة أركان بناء الأمبراطورية المابينهرية الكبرى.

فإثر دمار طيبة وفرار آخر فرعون حبشي نحو الشمال كانت مناطق مصر الثلاث: العليا والوسطى والسفلى منقسمة بين بضعة ملوك صغار تابعين للأشوريين ومن أهمهم بساميتيك(٦٦٣ ـ ٦٠٣) ابن نيكاو وسيد سايس وممفيس. وقد استأجر هذا الأخير وهو مؤسس السلالة السادسة والعشرين مرتزقة أيونيين وكاريين وخلع كل منافسيه الملوك عن عروشهم ليصبح الفرعون الأوحد.

ثم حاول بساميتيك الحصول على دعم خارجي لبلاده فبدأ بعقد تحالف مع كيليكيا، أتبعه بعد ذلك بقليل بعقد تحالف آخر مع جيجيس ملك ليديا. فهذان البلدان (كيليكيا وليديا)، اللذان يهددهما الأشوريون، كانا يعملان على خلق المصاعب لهم عن طريق تشجيع الثورات الداخلية في المقاطعات. وبعدما تعاظمت قوة بساميتيك بتحالفاته هذه، وبالمرتزقة الهندو ـ أوروبيين الذين استأجرهم ومستفيداً بالأخص من هجمات السيميريين والسيتيين التي كانت تحتجز معظم الجيش الأشوري في الشمال، أنقذ مصر من نير أشور بانيبال (٦٦٣).

«لقد استطاع ملوك سايس التخلص من النير الأشوري لأن أخطاراً كبرى كانت تشغل انتباه جميع ملوك نينوى. فأشور بانيبال ناضل طوال ملكه (٦٦٩ ـ ٦٢٦) ضد هجرات الآريين الى آسيا الصغرى. فيما ساعد السيميريون الفرس والماديين على التقدم من إيران باتجاه بلاد ما بين النهرين ثم تلاهم لاحقاً السيتيون الذين قدموا من البلقان حيث اجتاحوا الأناضول وزرعوا الاضطراب في صفوف الماديين والأشوريين واندفعوا في هجومهم نحو مصر»[12].

ب ـ قمع الثورات

قمع بابل الثائرة (٦٦١). ـ إن ثورة مصر تبعتها ثورة في بابل وأخرى في عيلام. فشاماشوموكين، شقيق ملك أشور ونائب ملك بابل، تآمر ضد أخيه بالتواطؤ

12 Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 566.

مع ملك عيلام الذي دخل المعركة ضد الأشوريين (٦٦١). وكان رد فعل أشور بانيبال سريعاً ورهيباً وقمعه لا يعرف الرحمة. ولما حوصر شقيق الملك في بابل فإنه أقفل على نفسه وعياله أبواب قصره ثم أشعل فيه النار فهلك معهم.

قمع العرب (٦٦٠). ـ وبعدما أنهى تسوية حسابه مع عيلام ارتد أشور بانيبال ضد البدو العرب الضالعين في التآمر مع سوزا وبابل فطاردهم حتى نجد وقبض على ملكهم عواطة وأوكل اليه حراسة أحد أبواب نينوى (٦٦٠).

تعرُّض الماديين الذين سحقتهم نينوى، للغزو من جانب السيتيين (٦٥٣). ـ وخلال هذا الوقت فإن مملكة الماديين التي تشكلت في إيران قررت توجيه ضربة كبرى الى نينوى غير أن هذه العملية الجريئة انتهت الى كارثة على الماديين. فملكهم فراورت (٦٥٥ ـ ٦٣٣) هلك في هذه المحاولة كما دمر جيشه (٦٥٣). وقد أفاد السيتيون من هذه الهزيمة وغزوا ميديا التي إحتفظوا بها تحت حكمهم طيلة ٢٨ عاماً (٦٥٣ ـ ٦٢٥).

تدمير سوزا وتجزئة عيلام (٦٤٠). رئيس الفرس ملك أنزان. ـ في العام ٦٤٠ عاود ملك عيلام الكرة. فما كان من أشور بانيبال إلا أن احتل سوزا وأحرقها وأباد سكانها ورحّل من بقي منهم مع الهتهم.

وأتبع هذا القمع بتقسيم مملكة عيلام الى شطرين: أنزان وتشكل الشطر الشرقي من البلاد وهي مستقلة مع الفرس الذين استقروا فيها وقد أعلن زعيمهم نفسه ملكاً على أنزان. وأما الشطر الثاني فهو سوزيان، الى الغرب وقد أسند أمرها الى بابل ومن ثم صارت فيما بعد مملكة تابعة لنينوى.

ج ـ انحدار الأمبراطورية الأشورية وانهيارها

تميزت السنوات الأخيرة من حكم أشور بانيبال بانحطاط أشور. ويمكننا تحديد تاريخ بدء هذا الانحطاط منذ العام ٦٤٠. فاعتباراً من هذا التاريخ وحتى وفاته العام ٦٢٦ كرّس الأمبراطور الأشوري نشاطه للأعمال الفنية والعلمية. فقد عثر على ٢٠,٠٠٠ لوحة تشكل جزءاً من المكتبة الكبرى التي أسسها وهي تشهد على فكره الرفيع وثقافته العالية. وبموته (٦٢٦) بدأ احتضار الأمبراطورية.

غزو السيتيين لسورية وفلسطين (٦٣٠). ـ إن السيتيين وقد تقووا بفعل انتصارهم على الماديين واحتلالهم لأراضيهم بدءاً من العام ٦٥٣ وبعدما انضم الى صفوفهم

السيميريون الذين طردوا من آسيا الصغرى، ارتدوا نحو الجنوب الغربي ينكلون بأشور وينهبون ويسلبون آسيا الصغرى وسورية وفينيقيا وفلسطين ويتقدمون حتى الحدود المصرية (٦٣٠). «إن ذكرى تلك الغارة حفظت في كلام للنبي إرميا الذي أعلنها بعبارات مأساوية. . . وقد اشترى فرعون إنسحابهم من الحدود المصرية، فانكفأ السيتيون الى جبال زاغروس، متابعين أعمال نهبهم».[13] وكانت النتيجة الأخيرة لتلك الغزوات زعزعة أمبراطورية أشور بانيبال الأشورية حتى في أساساتها» (موريه).

احتضار الأمبراطورية الأشورية. ـ إن غزو السيتيين لآسيا الصغرى وسورية وفلسطين كشف مدى الإنهاك الذي كانت عليه الأمبراطورية. وإثر موت أشور بانيبال (٦٢٦) انتشر السيتيون في كل مكان تقريباً ناشرين الرعب والفوضى. وترافق هذا مع بروز أزمة حكم سلالية في نينوى مما سرّع في انحطاط أشور التي وقفت عاجزة عن صد موجة السيتيين.

الماديون يعاودون تنظيم جيشهم ويتحررون من السيتيين. ـ قام سياكزار (٦٣٣ ـ ٥٨٤) ملك الماديين والتابع للسيتيين منذ هزيمة وموت والده فراورت (٦٥٣) بإعادة تنظيم جيشه مستوحياً التكتية (التنظيم العسكري) لدى الخيالة السيتيين وأحرز على هؤلاء نصراً مبيناً. فيما كان الماديون الذين تحرروا يفرضون سيادتهم على المانيين والفرس. فأصبحوا سادة غرب الهضبة الإيرانية وثبتوا عاصمتهم في ايكباتان، همذان الحالية.

كلدان بابل يتحرّرون من نينوى (٦١٦ ـ ٦١٤). ـ إن نابوبالاسار (٦٢٦ ـ ٦٠٥) حاكم بابل وابن الكلداني كاندا لانو الذي كان قد عينه أشور بانيبال العام ٦٤٨ نائباً للملك على بابل، أفاد من العجز الأشوري للتحرر من نير نينوى. فأعلن نفسه ملكاً وأسس السلالة الملكية الكلدانية أو البابلية الجديدة (السلالة الحادية عشرة: ٦٢٦ ـ ٥٣٩). وما بين العام ٦١٦ و٦١٤ كانت جميع بلاد بابل التي أصبحت كلدانية قد تحررت من النير الأشوري.

الكلدان ضد أشور ومصر. ـ في العام ٦١٦ رد نابوبالاسار الأشوريين حتى حران. وقد أقلق هذا النصر مصر التي رأت في هذه المملكة الفتية البابلية ـ الجديدة منافساً مستقبلياً خطراً. فما كان من الفرعون بساميتيك إلا أن تنكر لتحالفاته السابقة وبحجة مساندة ملك نينوى سعى الى استعادة فلسطين وسورية من أشور المحتضرة. وفي

13 Ghirshman, *op. cit.*, p. 82, 83.

العام ٦١٥ هزم الجيش الأشوري قرب الموصل (كركوك) على يد الكلدان الذين وصلوا حتى حدود نينوى.

الماديون ينضمون الى الكلدان. تدمير نينوى (٦١٢). ـ إن سياكزار ملك الماديين، مستانفاً سياسة أبيه فراورت الذي دفع حياته ثمناً لجرأته التي دفعته الى مهاجمة أشور، احتل ممتلكة أشورية في أودية زاغروس فتحت له الطريق الى نينوى. وقبل متابعة هجومه فاوض نابوبالاسار، ملك بابل على إتفاق توطد بزواج نبوخذ نصر إبن نابوبالاسار، من حفيدة سياكزار. وفي العام ٦١٥ استولى سياكزار على أسور. وفي العام ٦١٢ استولى ملك الماديين وملك بابل على نينوى ودمراها.

تدمير الجيوش الأشورية ـ المصرية (٦٠٩). ـ إن أشور وباليت (٦١١ ـ ٦٠٩) آخر ملك أشوري جمع بقايا جيشه وتراجع إلى حران حيث وصلت تعزيزات مصرية زادت من حجم جيوشه التي هلك معظمها. بيد ان نابوبالاسار هزم المصريين (٦٠٩) الذين إنسحبوا فيما بعد إلى فلسطين لينطلقوا منها (العام ٦٠٥) لمهاجمة نابوبالاسار مجدداً في كركميش.

الدولة الأشورية تختفي من التاريخ. ـ «اما الأشوريون، فإنهم تواروا من التاريخ كأمة مستقلة مع آخر ملوكهم أشوروباليت (٦٠٩). غير أن نابوبالاسار لم ينعم بالعيش قط بعد نصره الذي لم يسمع به أحد بعد في كل العالم الشرقي...

وعندما إنتشر الخبر بأن نينوى، ذئبة الأمم، باتت ترقد صرعى، إرتفعت صيحات الفرح من جانب إلى آخر في كل أنحاء الشرق وتبع ذلك أصوات اللعنات. ففي بلاد إسرائيل وجّه الأنبياء لنينوى اللعنة الفاجعة الأكثر وحشية التي سمعها التاريخ حتى الآن... «نحوم يطلق عنان حقد الشعوب... الويل للمدينة الدموية، الملأى بالنفاق والعنف»... كما أن صفنيا المعاصر ليوشيا والذي رأى الكارثة نراه يلعن أيضاً المهزومين: «إن يهوه سيدمر أشور وسيجعل نينوى خراباً وأرضاً مجدبة كالصحراء... ومرتعاً للوحوش»... ولا تزال نينوى إلى اليوم مدفونة تحت أنقاضها «وسكة الفلاح تمر فوق أسوارها»[14].

لقد باتت أشور المنهكة والضعيفة عاجزة على الرد وذلك بفرض نفسها عن طريق الإرهاب كما كانت تفعل في الماضي. وإن ضعفها سيفجر عما قريب وبوحشية

14 Moret, *Hist. de l'Orient,* II, p. 719.

لا تقل عن وحشيتها» الأحقاد المتراكمة في الشعوب التي كانت تستعبدها. ذلك أنه «وإذا كان الإرهاب يستطيع، إلى حين، أن يخضع المتزلفين ممن يتحملون نير العبودية، إلا أنه لا تخلو جميع الشعوب من «أناس صلاب» سيحاولون الثأر عاجلاً أو آجلاً، وإن هؤلاء الرجال الذين عمرت صدورهم بالأحقاد المكبوتة سوف يسعون بدورهم لردّ كيل الويل بالويل وصاع الأذى بالأذى[١٥]».

15 De Laplante, *op. cit.*, I, p. 68.

IV. الحضارة الأشورية.

١ ـ الإعتبارات التي عجلت في نهاية الأمبراطورية الأشورية.

إن الأمبراطورية التي أنشأتها أشور، وخلافاً للأمبراطوريتين اللتين أسستهما في الماضي بابل ومصر، كانت فتحاً هدفه الأول السلب والنهب. فكل ثروات البلاد المفتوحة كانت تستنزف نحو نينوى. فالمبادىء الدولية التي كانت تحكم العلاقات الدبلوماسية المتبعة بين الدول الكبرى بين القرن الخامس عشر والقرن الثالث عشر إختفت كلها إثر الإضطرابات التي أعقبت موجات الغزو التي حصلت العام ١٢٠٠. وأما في الشرق الأدنى الغارق في التردي والإقطاعية فقد كان قانون الغاب هو السائد في كل مكان. لهذا السبب ومن أجل إنشاء أمبراطوريتهم أرسى ملوك أشور مبدأ الحرب الشاملة.

أ ـ التناحر بين الأرض (أشور) والبحر (فينيقيا ومصر).

إن الأمبراطورية الأشورية وهي قارية أصلاً وفي عالم صار البحر فيه عاملاً حيوياً وعنصراً أساسياً في سبيل إزدهار الشعوب والدول، لم يكن بوسعها العيش إلاّ حياة خاملة من غير المدن الفينيقية التي تعتبر مراكز متقدمة لبلاد ما بين النهرين، ومن غير وادي النيل الذي يتحكم بالبحر الأحمر ويشرف على طريق الهند.

فإمتلاك فينيقيا من شأنه أن يسهل على أشور إمتلاك مصر التي كانت تجارتها تعتمد كثيراً على الموانىء الفينيقية. ولهذا السبب عندما إجتاح الأشوريون مصر تخلت مدن الدلتا، التي رأت في خضوعها لنينوى تسهيلات للتوسع، عن مقاومة الأشوريين وسلمت، على غرار المدن الفينيقية بتعاون يتلاءم مع مصالحها.

غير أن ضم مصر إلى أمبراطورية قارية كان من شأنه أن يلحق ضرراً بالغاً بمدن الدلتا التي كانت حياتها الإقتصادية مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالعالم المتوسطي البحري. ومن جهة أخرى فإن تطور الملاحة اليونانية في ذلك العصر في بحر إيجه

والبحر الأسود كان قد أعطى الطرق البرية التي كانت تصل موانىء آسيا الصغرى ببابل أهمية كبرى في الإقتصاد الدولي على حساب موانىء فينيقيا والبحر الأحمر. فمدينة سارد عاصمة مملكة ليديا في آسيا الصغرى أصبحت قوة إقتصادية جديدة ومركزاً دولياً للعبور التجاري (الترانزيت). إن هذا الوضع كان يسيء بقوة إلى الموانىء الفينيقية التي كانت تمر عبرها في الماضي كل حركة التجارة المتجهة من بابل نحو العالم المتوسطي ومصر.

إن مصر الملتزمة بالعالم البحري ما عتمت أن ثارت على النير الأشوري وقاتلت بضراوة، برغم ضعفها، عودة هذه السيادة القارية التي كانت تتسبب بخراب المناطق البحرية الخاضعة لها.

فمصر بإنفصالها عن أشور إنما ربطت نفسها بالإقتصاد البحري للغرب اليوناني ـ الإيجي. فالفراعنة المقيمون في الجانب البحري من بلادهم، في سايس في الدلتا، عقدوا تحالفاً وثيقاً مع سارد. ومثلما بسطت سارد سيادتها على جميع سواحل آسيا الصغرى وبحر مرمرة كذلك فإن مصر سعت من جهتها إلى إعادة وصايتها على الموانىء الفينيقية، التي كانت ترغب بإخراجها من دائرة السيادة الأشورية. وبعد فقدان مصر لم يعد في يد الأمبراطورية الأشورية منفذ لها على البحر سوى فينيقيا، التي كانت هي نفسها تعيش مرحلة إنحطاط وبالتالي فهي معادية.

وهكذا، وبلا فينيقيا، ستصبح الأمبراطورية الأشورية قارية تماماً وتالياً قليلة الإزدهار. ومن جهة ثانية فإن إنفصال فينيقيا عن مصر سيلحق الضرر بإقتصادهما معاً.

ومن هنا جاءت تلك العداوة وتلك المقاومة الشرسة اللتان واجهت بهما صور السيادة الأشورية التي عجزت عن تحطيم تلك المقاومة. وأما سائر المدن الفينيقية فكانت في مقاومة مستمرة طيلة حكم الأشوريين لها. فهذه المدن الفينيقية فضلاً عن كونها موانىء أمامية لأشور على المتوسط الشرقي، هي أيضاً مواقع هامة لملوك نينوى الراغبين بإحتلال مصر، أو تثبيت حكمهم فيها. كما أنها تشكل بالنسبة إلى مصر نفسها منطقة نفوذ هامة بوسعها تهديد الجناح الغربي للأمبراطورية الأشورية.

إن فينيقيا الضعيفة على البر سلمت بالسيادة الأشورية. وتمشياً مع سياستها التقليدية فإنها تدفع الجزية للمنتصر وتبقى خاضعة له طالما أن هذا النظام يراعي مصالحها الإقتصادية. لكن مع الأسف فسياسة الأشوريين المنكدة التي حاربتها

سياسة الدول المتوسطية خربت الموانىء الفينيقية. وأفادت المستوطنات الصورية في افريقيا الشمالية من هذه الأوضاع لتبدأ بالتحرر من العاصمة الأم صور. كما أن قرطاجة بدأت تعي شخصيتها. وفضلاً عن ذلك وبفضل هذا الإنحدار الذي شهدته السيادة الفينيقية على البحار فإن مشاريع الهللينيين البحرية منها والإستعمارية أخذت تشهد بدورها توسعاً كان معطلاً منذ قرون. وأما مدن فينيقيا التي أصابها الخراب فإنها لن تعرف إزدهارها السابق من جديد إلا في أيام حكم الفرس (٥٤٠ ـ ٣٣٠) الذين سيعولون على البحرية الفينيقية في صراعاتهم ضد الأغارقة.

ب ـ دور الأمبراطورية الأشورية التاريخي

«حتى أن وحشية الأشوريين نفسها كان لها أيضاً دورها التاريخي. فسياستهم الخالية من الإنسانية خدمت لا شعورياً قضية الحضارة. فرومان آسيا القديمة هؤلاء وعن طريق الدم والحقد ـ وبالإرهاب المعلن كنظام حكم ـ نجحوا أخيراً في توحيد جميع الشرقيين تحت نير واحد. وكعرق أمبراطوري في الشرق فإنهم جمعوا في الأمبراطورية الواحدة كل الدول المتحضرة القديمة. وهم عن طريق الإجتياح والموت عمموا السلم من النيل إلى جبل آرارات. صحيح أن هذه الأمبراطورية ستنهار في الوقت المحدد الذي أنهى فيه السرجونيون بناءها، وأن سلم الموت هذا تلاه تمرد جميع الشعوب المعذبة. لكن خطأ الأشوريين في هذا الصدد إستمر زمناً طويلاً من بعدهم. فالسلم السرجوني القصير والرهيب، كان نذيراً للسلم الأخميني (الفارسي) الخيّر. والوحدة السياسية الكبرى التي أنجزها السرجونيون لن يكتب لها الزوال بعدها. إن هذه الأمبراطورية السرجونية التي سيرثها تحت أسماء مختلفة وسادة مختلفين من الكلدان والأخمينيديين والمقدونيين والساسانيين والعرب، كل بدوره، إن تلك الأمبراطورية في آسيا الأمامية، ستظل أحد المعطيات الأكثر ثباتاً عبر التاريخ وستحتفظ حتى النهاية بطابع الحضارة المادية الخاصة بنينوى وبابل.

إن الحضارة الكلدانية ـ الأشورية كانت تحمل بذور كل الحضارة العربية ـ الفارسية تقريباً. وإن بلاط السرجونيين بوحشيته وأبهة طغيانه الملكي وترف تزيينه وهذا المزيج من الرخاء والقوة الشرسة الذي دان لكل شخصياته، كان يمثل في ذاته كل الشرق»[16].

إن فكرة إقامة أمبراطورية شرقية كبرى التي حاول العديد من الملوك الطامحين

16 R. Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, t. I, p. 72, 73.

إنشاءها خلال القرون الماضية عبثاً، قد تحققت موقتاً بفعل الأسلحة الأشورية. إن هذه الفكرة الأمبراطورية التي سوف تستأنف خلال القرون المقبلة من جانب العديد من الفاتحين، وتتحقق على التوالي من قبل الكلدان والفرس واليونانيين والرومان والعرب والأتراك،ستستمر،وهي تجد صداها اليوم في الوحدة العربية وهو النظام السياسي الحديث الساعي إلى توحيد مختلف دول الشرق العربي المعاصر في امبراطورية واحدة.

٢ ـ الحضارة

أ ـ الملك، الجيش والبحرية.

إن الملك الأشوري هو مركز الأمبراطورية. وفي الواقع فإن الأمبراطورية تتجسد في الملك وفي الجيش الذي يكون هو رئيسه المطلق. وإن ملك أشور يقاتل في المعارك على رأس جيشه إما راجلاً أو ممتطياً عربة. وهو يستخدم سيفه أو هراوته أو قوسه. في قصره وفي لباس البلاط هو يتألق قوة وبذخاً وتتجلى وحشيته حتى في ملذاته. فصالات المآدب كانت تزين برؤوس الأعداء المهزومين المقطوعة.

إن أبهة هؤلاء الملوك تتجلى بخاصة في قصورهم الرائعة التي كانوا يبنونها لأنفسهم وسط الأمبراطورية حيث كانوا يخلدون إلى الراحة بضعة أشهر بين حملتين عسكريتين وكانوا يتمتعون خلالها بحياة رخية وملذات لا حدّ لها.

وعلى غرار ما كان سائداً في بابل من قبل فإن الخدمة العسكرية كانت تنظمها قوانين. فعلى كل دائرة أو مدينة تقديم فرقة عسكرية محددة. وهناك ضريبة خاصة تدفع عن الأراضي وتستخدم لإعالة الجيش الذي يتألف من فرق مشاة وعربات وخيّالة.

أما القنوات والأنهار الصالحة للملاحة والخليج العربي فقد ساعدت على إنشاء وتطوير بحرية حربية وتجارية. ويذكر كونتنو أن «عمالاً وبحارة فينيقيين كانوا مستخدمين من قبل الأشوريين ـ البابليين».

ب ـ المجتمع الأشوري

كان المجتمع الأشوري مؤلفاً من طبقتين: الناس الأحرار والأرقاء. وكان الأرقاء يتمتعون بالتنظيم نفسه الذي حددته لأمثالهم في بابل شرعة حمورابي. وكان الزواج بين الناس الأحرار يعقد على الطريقة البابلية بعد تبادل الهدايا. وأما الزواج

عن طريق دفع المال فكان نادراً. وكانت المرأة الأشورية عامة تتمتع بحقوق أقل من حقوق المرأة البابلية. وأما الإخلال بالآداب العامة فكانت عقوبته شديدة.

ج ـ إرتداء الحجاب عند النساء

وكانت العادة الشرقية بإرتداء الحجاب متداولة في أشور حوالي العام ١١٠٠. وهذه العادة التي أوحت بالحجاب الإسلامي اليوم كانت إمتيازاً مقتصراً على المرأة الحرة أكثر مما هو تقييد. وعلى عكس الحجاب الإسلامي الذي يغطي الوجه فقد كان الحجاب الأشوري يدع الوجه مكشوفاً لكنه يغطي الرأس وينسدل حتى القدمين. ولأنه إمتياز طبقة الأحرار فقد كان يحرم إرتداؤه، تحت طائلة العقوبة، على الأرقاء والجواري والبغايا إلخ...

د ـ القانون

إننا نجد دقة أشدّ في القوانين الأشورية مما هي عليه شرعة حمورابي، كما تميزت نصوص شرعة حمورابي بدقة أكبر مما كانت عليه نصوص القوانين السومرية السابقة. لكن القوانين الأشورية هي أكثر قسوة من قوانين حمورابي مع أن هذه تسبقها بنحو ألف سنة من الزمن.

«فبَوَضَ أن يزداد الرفق في الأحكام مع مرور الزمن، فإن العقوبات صارت أشدّ قسوة... كالضرب بالعصي على ذنوب بسيطة وقطع الأصابع أو ثلم إحدى الشفتين أو جدع الأنف أو بتر النهدين أو الأذنين. وأما الإعدام فينفذ على الخازوق أو شنقاً وأيضاً إغراقاً في الماء... هذه الشدة في القمع... تنطبق على ما عرفناه من خلال النصوص والأنصاب عن طبع الأشوريين العنيف. فهؤلاء فضلاً عن العناصر السومرية والسامية التي تألف منها البابليون، كانوا يضمون عناصر قادمة من آسيا الصغرى ومن عرق مختلف على الأرجح. وقد أسهمت إقامتهم في منطقة جبلية في إضفاء تلك الخشونة على طباعهم بل وحتى الوحشية الطبيعية التي نجدها لديهم في كل مراحل تاريخهم.

ونحن إذا تفحصنا العقود والرسائل والأنصاب فإننا نجد هؤلاء شعباً ماهراً منهمكاً في التجارة والمهن الأكثر تنوعاً»[١٧].

17 G. Contenau, *La Civilisation assyro-babylonienne*, p. 131, 132.

هـ ـ الدين

الدين الأشوري أصلاً هو دين الألف الثاني نفسه. غير ان الإله القومي أسور والذي كان في الماضي إلهاً لمدينة أسور غدا إله نينوى والإله الأعلى وإله الأمبراطورية. إنه خالق البشرية وهو خصوصاً إله الحرب وزوجته عشتار إلهة محاربة مدججة بالسلاح أسوة بزوجها.

و ـ الأدب والعلم.

«كان هذا الشعب الفظ بالغ الثقافة. فهو تربى في مدرسة الآداب الكلدانية وإقتبس إرثها الثمين ونقله إلينا. وآخر ملوكه أشور بانيبال جمع في نينوى مكتبة ضخمة ضمت آلاف اللوحات التي نقلت إلى المتحف البريطاني. وهذه المكتبة تشمل جميع المعارف العلمية والأدبية المتراكمة منذ ٢٤٠٠ عام وحتى ذلك التاريخ أي من بداية عهد المجتمع الكلداني ـ الأشوري»[١٨].

في حين يطلعنا أدب الرسائل على الشعائر الدينية والوحي الإلهي، والنبؤات فضلاً عن المعلومات الفلكية المبنية على معطيات من أصل بابلي.

وتعتبر اللغة الأشورية الشقيقة التوأم للغة البابلية. وستحل اللغة الأرامية محل تينك اللغتين لاحقاً وتدريجاً كلغة تجارة ولغة دولية. ومنذ القرن الثامن كان ملوك أشور يعينون كتبة آراميين في بلاطاتهم وفي القرون التالية ستغدو اللغة الأرامية في متناول الشرق الأدنى بأسره.

ز ـ الطب

«كان على أشهر الأطباء في ذلك العصر أن يمارسوا مواهبهم على أعضاء الأسرة المالكة التي كان وهنها الجسدي يتفاقم بسرعة منذ عهد أسرحدون. فالطب منذ أقدم الأزمنة كان قبل كل شيء فعل شعائر وممارسات سحرية: فالمريض هو خاطىء وشفاؤه يتوقف على إبعاد الأرواح الشريرة من داخله ومحيطه وعلى مصالحته مع الإله الذي أغاظه. غير أن الأطباء الأشوريين لم يعودوا يكتفون بالممارسات القديمة بل كانوا يسلمون بوجود أسباب جسدية ويحاولون إستكشافها بواسطة تشخيص جدي ثم يسعون جادين بعدها لشفاء المريض بواسطة أدوية مادية أيضاً. ولم يكونوا يترددون في إعلان: «لست أفهم شيئاً» غير آبهين من أن تكون شهرتهم عرضة

18 R. Grousset, Les civilisations de l'Orient, I, p. 76, 77.

للإنتقاص. وقد عرفوا منافع الحمية في الطعام والدهون والحمامات المحلية والغسول والكمادات والضمادات والرباطات. وأما الأدوية الداخلية فهي على الأغلب نادرة. وفي جميع الحالات كان العلاج العلمي يترافق مع العلاج الروحي التقليدي. وكانت لوحات من معدن أو من أحجار تحمل صورة الشيطان المطلوب إخراجه من جسد المريض فضلاً عن كهان يرتدون حلة جلد السمك بحيث يمثلون الإله إيا ساحر الآلهة ويقومون بوضع تلك التمائم (التعويذات) على جسم المريض أو على سريره أو في غرفته»[19].

ح ـ الفن الأشوري

«إن الفن الأشوري ليس مستمداً من الفن الكلداني وحده بل من الفن الحثي كذلك أو بالأصح من الفن الكلداني عبر الفن الحثي... فالأشوريون، الذين بهروا بزخرفات الأنسجة، فقد خنقوا الجسم تحت غنى تلك الأقمشة وثقلها... ومن بين الكائنات الميتولوجية (الأسطورية) فقد كان هناك الثور المجنح ذو الرأس البشري والذي يوضع كحارس للأبواب... فجسمه جسم ثور ولكن تجاعيد صوفه ولبدته تشبه الأسد فيما أجنحته الكبيرة هي أجنحة نسر. إن هذا المخلوق الأسطوري الذي فيه من الإنسان والثور والأسد والنسر هو مزيج يمثل القوى الكبرى في الطبيعة... وهو بمثل عظمة زوس كبير الآلهة..

لكن إنتصار الأشوريين كان في تمثيلهم للأسد. لقد صوروه فعلاً وفقاً للنموذج الطبيعي. حتى الأسود اليونانية تبدو إزاء أسود الأشوريين كيفية.

فالأشوريون في تصويرهم الأسد والثور المجنح قد ألهموا كثيراً فن النحت الفارسي الأخمينيدي. فمجمل الفن الفارسي، بما فيه فن الساسانيين، ورث أيضاً مواضيع الشعارات الأشورية»[20].

19 Delaporte, *Le Proche-Orient asiatique*, p. 276.
20 R Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, t. I, p. 78, 80, 82, 90, 93, 94.